

الثالث: "من الحرية والجنون والإبداع" (الحلقة الحادية عشر)



نشرة "الإنسان" 2019/11/16

المسبة الثانية عشرة - العدد: 4459

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

yehiatrakhawy@hotmail.com

.....

.....

القهر من الخارج: مادة لإبداع لاحق:

أنواع القهر الخارجى كثيرة، لكنها يمكن أن تتفق فى موقعها من التأثير على الحرية. القهر الخارجى - وخاصة إذا قورن بالقهر الداخلى- له فضل على الحرية لا يخفى، وذكر الفضل لا يعنى بالضرورة طلب المزيد، بقدر ما يعنى الإحاطة بالأبعاد موضوعيا، بما فى ذلك تجاوز مجرد الشكوى والتبرير. ولا مجال هنا لتعداد أشكال القهر الخارجى المعروفة مثل القهر البوليسى، والقهر الاقتصادى، والقهر السياسى، والقهر السلطوى الدينى، فكل هذا معروف ومعاد.

للقهر الخارجى شكلان: ظاهر وخفى: أما القهر الخارجى الظاهر فقد يساهم فى الحفاظ على المعركة فى الخارج، فهو يكتف المواجهة، وهو أيضا ينبه إلى أشكال القهر الخفية المحتملة، ثم إنه يمكن أن يكون مصدرا جيدا من مصادر نوات الداخلى (التقمص بالمعتدى ، ولو مؤقتا) مما يمكن فيما بعد أن يستعمل كأبجدية للإبداع (أنظر بعد). أما القهر الخارجى الخفى، فهو أكثر من أن يحاط به، وبعضه يتمثل فى الإعلام وشروط النشر وقدمية المنهج ، وما يعينى من كل هذه الصور هو أن أركز على أن الخطر الأكبر على الحرية هو حين ينتقل هذا القهر الخارجى ليصبح قهرا داخليا.

مناورات التقمص للخلع

ينتقل الخارج إلى الداخلى بما فى ذلك صور القهر وشخصه باستمرار، فضلا عن أن الداخلى - تطوريا - ليس إلا جماع تراكمات الخارج فى طفرات نوعية عبر الزمن. إن هذه النقلة من الخارج للداخل تأخذ صورا متنوعة فى حياة الفرد، وهى صور مرتبطة أشد الارتباط بإشكالية الحرية والإبداع. هذه النقلة تتم من خلال حيل متنوعة دفاعية متعددة أهمها: التقمص⁽²⁾ والحيل المتعلقة به مثل الإدخال⁽³⁾ والغمد⁽⁴⁾ والإدماج⁽⁵⁾)

يولد الإنسان ضعيفا بلا كيان خاص تقريبا لكنه مشروع كيان متفرد، قادر على التجاوز، فهو يولد كمشروع ذات ليس إلا، وبمجرد خروجه من الرحم باستعدادات وراثية محددة من ناحية، وقدرات نمو غير محددة من ناحية أخرى، يحتاج إلى حمايات متلاحقة، ونظرا لصعوبة وطول رحلة النمو وطبيعتها اللولبية النبضية الإيقاعية فإن هذا الكيان الضعيف يلجأ إلى عدة حيل احتوائية، تقمصية تدعيمية، تساعده فى تنظيم رحلة نموه الطويلة الصعبة، بمعنى أنه يلبس غيره، ويستعين بمن سواه، ويعتمد عليه، ويتوكأ على

القهر الخارجى الظاهر فقد يساهم فى الحفاظ على المعركة فى الخارج، فهو يكتف المواجهة، وهو أيضا ينبه إلى أشكال القهر الخفية المحتملة

أما القهر الخارجى الخفى، فهو أكثر من أن يحاط به، وبعضه يتمثل فى الإعلام وشروط النشر وقدمية المنهج

أن الخطر الأكبر على الحرية هو حين ينتقل هذا القهر الخارجى ليصبح قهرا داخليا.

ينتقل الخارج إلى الداخلى بما فى ذلك صور القهر وشخصه باستمرار، فضلا عن أن الداخلى - تطوريا - ليس إلا جماع تراكمات الخارج فى طفرات نوعية عبر الزمن

يولد الإنسان ضعيفا بلا كيان خاص تقريبا لكنه مشروع كيان متفرد، قادر على

ما تيسر منه حتى يتمكن من الاستمرار وهو يتخلص أولاً بأول من كل ذلك بالتدرج كلما أمكنه ذلك دون أن يتم هذه المهمة أبداً.

والقواعد العامة التي تفسر وتبرر هذه الحيل الاحتوائية التدميرية تقول: **إني أحتوي أو ألبس مرحلياً** "كل مَنْ":

1- مَنْ لا أستطيع مواجهته الآن.

2- مَنْ لا أستطيع السيطرة عليه الآن.

3- مَنْ لا أستطيع استيعابه الآن.

4- مَنْ لا أستطيع مقاومته الآن.

. . . ولكنني لا أستطيع الاستغناء عنه أيضاً (ومرحلياً: بيني وبينكم!)

وتختلف حيل الاحتواء باختلاف طريقة الإدخال وثبات المدخل، فمثلاً:

1- فى حيلة التقمص يلبس الفرد ذاتا مستمدة من الخارج تصنع له مايمكن أن يسمى قشرة حامية، وفى نفس الوقت فاعلة ونشطة، ومن هذا المنطلق يمكن أن نرى التقمص كدعامة قشرية فاعلة ومفيدة، ولكنها مرحلية على مسار النمو والتكامل، هذا إذا ما أتيح لها أن تتكسر نتيجة لنمو الذات الأصلية المستمر لدرجة تتجاوز أبعاد هذه القشرة القميص، وأيضاً فإن هذه القشرة تتضاءل وضغطاً وقهراً نتيجة لهضم واستيعاب كثير من مكوناتها من ناحية أخرى، إذن فالتقمص المفيد والضرورى هو الذى يحمل مقومات التخلص منه بأن يكون متصفاً بالصفات التالية:

* أن يكون قشرياً: بحيث يكون منفصلاً بدرجة ما عن الداخل النامى (أو الكيان الكامن استعداداً للنمو).

* أن يكون متوسط القوام: لأنه إذا كان رقيقاً هشاً، لن يقوم بالدور الدعامى المطلوب، وإذا كان سميكاً صلباً، فسوف يعوق النمو الأسمى .

* أن يكون مرحلياً: بحيث يسمح للنمو الداخلى بالاستمرار (الإيقاعى) حتى يستوعب - مجدداً - جزءاً من هذه القشرة ويهضمها حتى التمثّل، ثم يتخلص مما تبقى من القميص الحالى فى نوبة نمو، ليتقمص قميصاً (ذاتاً خارجية) أرق وأكثر مرونة، تسمح بنبض أرحب حرية، وهكذا، باستمرار.

* يصبح التقمص بهذه الصورة ضرورة نمو . لا بد من ذلك . من خلال مفهوم النمو المرحلى متصاعداً الدرجات، حيث تحتاج كل مرحلة نمو إلى كيس (أو رحم) تنمو الشخصية داخله، وهذا الرحم النفسى هو الكيان الآتى من الخارج، الذى يسمح بالكيان الداخلى فى الوقت المناسب بكسر ماتبقى من هذه القشرة بعد هضم جزء من جوانبها، ثم باكتساب قشرة جديدة أرق وأقصر عمراً وهكذا.

إذا نظرنا إلى كل ذلك من منظور الحرية فإنه ينبغى علينا أن نضع فى الاعتبار العوامل التى تجعل هذا التقمص معوقاً دائماً للنمو والإبداع، فى مقابل تلك التى تجعله جليداً حامياً قابلاً للانسلاخ.

على الرغم من أن التركيز فى الفكر التحليلى النفسى كان على التقمص بالمعتدى فقد وجدت أن القهر لا يأتى فقط من معتدٍ جبار، بل قد يأتى من مصادر أبعد ما تكون فى الظاهر عن شبهة الهجوم الصريح، وهذا بعض ما أشرت إليه فى معنى القهر الخفى، فأحياناً يكون التقمص بالمشابهة: (6) أقسى، وأكثر إعاقة للإبداع من التقمص بالمعتدى. وهو ما يحدث فى الإفراط فى التركيز على "القدوة" حرفياً سواء كان هذا القدوة زعيماً أم والداً أم حتى مبدعاً، والتخلص من مثل هذا المدخل المماثل أصعب لأن التشابه أقرب، إذ قد تخلط السمة (الذات) المتقمصة، بالذات النامية، لشدة التشابه بينهما، ولا يمكن التمييز بين النمو الزائف بالتقمص، ذلك النمو الذى يخدعنا فى شكل قفزة نمو سريع ولكن مشكوك فيها،

التجاوز، فهو يولد كمشروع ذاتى ليس إلا

إني أحتوي أو ألبس مرحلياً "كل مَنْ":

1- مَنْ لا أستطيع مواجهته الآن.

2- مَنْ لا أستطيع السيطرة عليه الآن.

3- مَنْ لا أستطيع استيعابه الآن.

4- مَنْ لا أستطيع مقاومته الآن.

فى حيلة التقمص يلبس الفرد ذاتا مستمدة من الخارج تصنع له مايمكن أن يسمى قشرة حامية، وفى نفس الوقت فاعلة ونشطة

التقمص المفيد والضرورى هو الذى يحمل مقومات التخلص منه

أن يكون قشرياً: بحيث يكون منفصلاً بدرجة ما عن الداخل النامى (أو الكيان الكامن استعداداً للنمو).

أن يكون مرحلياً: بحيث يسمح للنمو الداخلى بالاستمرار (الإيقاعى) حتى يستوعب - مجدداً - جزءاً من هذه

القشرة ويهضمها حتى التمثّل، ثم يتخلص مما تبقى من القميص الحالى فى نوبة نمو، ليتقمص قميصاً (ذاتاً خارجية) أرق وأكثر مرونة، تسمح بنبض أرحب حرية، وهكذا، باستمرار

وبين النمو الأصيل (النمو التدريجي الأساسي)، اللهم إلا بنوع النبض العاطفي المصاحب، ومدى الإبداع والأصالة في تحديد الصفة أو السمات.

أما التقمص بالمخالف والنقيض (7) ففيه يتمص الفرد من يختلف عنه، وكلما ازداد الخلاف ازداد عمق التقمص واشتدت حدته حتى تصل قمته إلى التقمص بالنقيض (8). إن هذه الصورة هي أخطر على الحرية لأن التمسك بها يوحى بالتححرر من القهر الخارجى بأن يصبح المتقمص مثله، فإذا به فى واقع الأمر لا يفعل إلا أن يكرره على حساب ذاته ونموها.

أين يقع التقمص - كمثال - فى الإبداع:

ما لم يكن التقمص عنيفا غائرا صلدا فإنه يصبح ثروة قابلة للهضم والاستيعاب والتمثيل فيما بعد، وهذا يؤيد الرأى القائل بأن التقمص يدعم التلقائية الذاتية الأولية (9) ويتعلق فى نفس الوقت بتكوين وتنمية التلقائية الذاتية الثانوية (10).

خلاصة القول: إن التقمص بصفة عامة هو "لبس" كيان بشرى كقشرة خارجية، وبالتالي يمكن تمييزه عن حيلة التقديس (11) حيث يظل هذا الكيان المقدس خارجيا، وعن حيل الغمد (12) والاحتواء (13): فى الغمد تدخل الخبرة غائرة دون الحاجة إلى "لبس كيان" حامى، أما فى حيلة الاحتواء فيندمج كل من الكيان الخارجى والخبرة مع كيان الفرد (الطفل عادة) بحيث يصبح الاختلاط كاملا بشروط معوّقة حالا ومستقبلا.

التعامل مع الخارج الذى صار داخلا:

يتوقف تناول الداخل المكثف من الخارج متفاعلا مع الأقدم فالأقدم على حركية الوجود بيولوجيا ووجوديا، وبافتراض أن هذه الكيانات (والمعلومات) المدخلة قابلة للحريك (التعنتة) يمكن تصوير الأمر على الوجه التالى:

إن ما يترتب على "تعنتة" (14) الكيان اللابس سواء كخطوة نحو الذهان أو نحو النمو أو نحو الإبداع تختلف عن استرجاع خبرات الغمد، وكذلك عن تجبير التحام الاحتواء. ولتوضيح ذلك أكثر قليلا نذكر أن مدرسة العلاقة بالموضوع تفرق بين كيفية الاحتفاظ بالأحداث حسب نوع الحدث المحدد، وقد قمتُ بالتمييز بين ما يحتفظ كذكرى، وما يحتفظ ككيان داخلى (موضوع) ليس على مقياس ما سمي "حسنا" و"سيئا" كما زعمت مدرسة العلاقة بالموضوع (ميلانى كلاين)، بل باعتبار أن المسألة تتعلق بقدر الاستيعاب والتمثل: إن كاملا وإن ناقصا، وبيان ذلك:

"إننا نحتفظ بالخبرة الناقصة ككيان داخلى لعلها تكتمل بالاسترجاع يوما ما (فى الحلم أو فى أزمة النمو أو مع بسط الإبداع أو حتى كأمل مُجهض فى خبرة الجنون) أما الخبرة الكاملة فنحتفظ بها متكاملة فى الكل بعد ان احتواها الكيان النامى" كما أن الخبرات الناقصة هى ناقصة لأنها مبتورة... وهى مبتورة لأنها مجهضة ناقصة التمثيل، والغالب فى مدرسة العلاقة بالموضوع تفسير يقول: إنها مجهضة لأنها سيئة".

يدعم ما ذهبنا إليه من اعتراض على مدرسة العلاقة بالموضوع أن هناك من الخبرات السارة ما يُتبر أيضا، فيجهد، لفرط ما يحمل من انفعال لا يمكن استيعابه تماما فى نفس اللحظة، إذن فالذى يحدد الاحتفاظ "كذكرى" أو "كموضوع داخلى" هو القدرة على هضم الخبرة ومداهها، وبما أن كل الخبرات نادرا ماتهضم تماما لأول وهلة فعلى أن نقبل بمبدأ النسبية فى هذا الصدد بحيث تصبح كل خبرة مهضومة بنسبة معينة، ومؤجلة بنسبة أخرى، والجزء الأول قد يتجلى كذكرى فى حين يظل الجزء الثانى ليصبح موضوعا داخليا ينتظر الاستعادة (شعوريا أو لاشعوريا) لإعادة الهضم فالتمثل فى الكيان النامى.

بتلاحق الممارسة تبيّن أن المسألة لا تتعلق ابتداء لا بالحسن ولا بالسوء، ولا هى مرتبطة فقط

أحيانا يكون التقمص بالمشابهة: أقمسى، وأكثر إعانة للإبداع من التقمص بالمعتدى. وهو ما يحدث فى الإفراط فى التركيز على "القدوة" حرفيا سواء كان هذا القدوة زعيما أم والدا أم حتى مبدعا

أما التقمص بالمخالف والنقيض ففيه يتمص الفرد من يختلف عنه، وكلما ازداد الخلاف ازداد عمق التقمص واشتدت حدته حتى تصل قمته إلى التقمص بالنقيض

لم يكن التقمص عنيفا غائرا صلدا فإنه يصبح ثروة قابلة للهضم والاستيعاب والتمثيل فيما بعد

فى حيلة الاحتواء فيندمج كل من الكيان الخارجى والخبرة مع كيان الفرد (الطفل عادة) بحيث يصبح الاختلاط كاملا بشروط معوّقة حالا ومستقبلا.

يتوقف تناول الداخل المكثف من الخارج متفاعلا مع الأقدم فالأقدم على حركية الوجود بيولوجيا ووجوديا، وبافتراض أن هذه الكيانات (والمعلومات) المدخلة قابلة للحريك (التعنتة)

نحتفظ بالخبرة الناقصة ككيان داخلى لعلها تكتمل

بالاسترجاع يوماً ما (في العلم أو في أزمة النمو أو مع بسط الإبداع أو حتى كأهل مُبعض في خيرة الجنون)

الخبرة الكاملة فيحتفظ بها متكاملة في الكل بعد ان احتواها الكيان النامي

أن الخبرات الناقصة هي ناقصة لأنها مبتورة... وهي مبتورة لأنها مجبضة ناقصة التمثيل، والغالب في مدرسة العلاقة بالموضوع تفسير يقول: إنها مجبضة لأنها سيئة.

الذي يحدد الاحتياط "كذكرى" أو "كموضوع داخلي" هو القدرة على هضم الخبرة ومدائها

كل خبرة مهضومة بنسبة معينة، وموجلة بنسبة أخرى، والجزء الأول قد يتجلى كذكرى في حين يظل الجزء الثاني ليصبح موضوعاً داخلياً ينتظر الاستعادة (شعورياً أو لاشعورياً) لإعادة الهضم فالمتمثل في الكيان النامي

إن القهر الداخلي المطلق يحول دون الإبداع، أي يعوق الحرية من حيث أنه يحول دون النبض ودون التعتعة

بالمكتمل والناقص، وإنما هي تتعلق أيضاً، وربما أساساً، بمرونة الكيان البشري وصحة نبضه (وإبداعيته)، فسواء كان الموضوع الداخلي ذكراً أو موضوعاً حسناً أم سيئاً، فإنه موضوع حركي متغير قابل للتمثل كما هو قابل لإعادة الشحن، وإعادة التنشيط، وإعادة التنظيم (في إبداع لاحق)، وهكذا باستمرار.

من هنا أستطيع أن أضيف في هذا الصدد - فيما يتعلق بالحرية- ما يلي:

إن القهر الداخلي المطلق يحول دون الإبداع، أي يعوق الحرية من حيث أنه يحول دون النبض ودون التعتعة، وفي حين يمكن مواجهة القهر الخارجي بشكل ما، كما يمكن اختراقه، بل واكتساب القوة من خلال ذلك. إن ما يترتب على القهر الداخلي المرحلي، فهو خفي، ومخادع وليس في المتناول، وعلى الرغم من أن عمليات الإدخال والاحتواء هذه ضرورية ومفيدة إلا أنها لا بد أن تكون "مرحلية" ومتناسبة مع مرحلة النمو وثرء الخبرة، وإلا أصبحت خطراً معوقاً كما ذكرنا مع كل حيلة، بمعنى أن أي اقتحام من الخارج، إن كان ضرورياً، وهو حادث أردنا أم أبنينا، لا بد أن نتوقع ونعمل على أن يُتمثل أو ينفصل ما تبقى منه في تعتعة لاحقة ليتمثل من جديد، وهكذا. إنه إذا حدث ذلك في نبض متنازل وكانت الظروف مواتية بمعنى: أن تكون الذات قد اكتسبت خبرات ومكاسب وشحن وتقديراً من آخرين حقيقيين بدرجة تغنيها عن معظم هذه المساند والدعامات والأغطية، فسوف يسمح للنمو أن يكسر قشرة التقمص كما يكسر الكتكوت قشرة البيضة حين يحين أوان الفقس، كما أن "عكاكيز" الغمد جديرة بأن تسقط وحدها لأنها تصبح باستمرار أقصر من الساق التي اعتمدت عليها من قبل، و يتم ذلك بدرجات أسرع وأمن حين يكون المجتمع في الخارج مجتمعاً مرناً نابضاً أيضاً، وفي نفس الوقت يكون محدد المعالم، فالمرونة وحدها، أو التحديد وحده، لا يكفي أي منهما للقيام بعملية الاستيعاب المذكور، وقد يبدو التحديد ضد المرونة، إلا أن هذا تضاد ظاهري، فالقلب مثلاً محدد تماماً وقوي الجدران (العضلات) كعضو هام، وهو مضخة نابضة عظيمة المرونة في نفس الوقت، وبدون هاتين الصفتين مجتمعين لا يقوم بوظيفته بكفاءة مناسبة.

تقوم الذات من خلال الإيقاع الحيوي مع كل نبضة بعمليات التعتعة، فالمواجهة، فالهضم، فالتمثيل والاستيعاب. وفي كل هذه الأحوال لا تكون ثمة حاجة إلى إبداع منتج خارج الذات لو سارت الأمور هكذا بسلاسة شبه كاملة.

واقع الحال يدل على أن هذا المطلق هو أمر مستحيل، ويصبح أكثر استحالة، بل يصبح غير وارد إلا بالنذر اليسير حين تظل المادة المدخلة (بالتقمص، والاحتواء، والغمد وغيرها) ثابتة ملتزمة طول الوقت بحيث تقضى على أي احتمال حقيقي للنمو، وينتج عن هذا نمو متليف مبتسر، يظهر في صورة إكلينيكية توضع تحت التشخيص الأساسي المسمى: اضطرابات الشخصية، وتشمل أيضاً بعض أنواع العصاب المزمن والذهان المزمن والمتبقي وأيضاً فرط العاديه.

لكن قد تستمر المادة المدخلة بعد التعتعة في حالة حركة مستمرة دون أن تنتقل إلى الخطوات التالية، وبالتالي فإنها قد تمثل نشاطاً داخلياً مستقلاً ونشازاً يجذب الطاقة نحوه وحوله، بحيث تصبح الطاقة المتاحة للنشاط الانبعاثي والتلقائي والخالقي ضعيفة ومنهكة، وهذا ما يترتب عنه مجموعة من الأمراض تقع عادة تحت فئة "العصاب".

وقد يصل الأمر إلى إجهاض خطوات الاستيعاب مع تطوير الخطوات الأولى في اتجاهات تناظرية متزايدة حتى التناثر، مما يترتب عليه تناثر فرصامي أو غير ذلك من أمراض بديلة توجل أو تحور هذا المأل إلى مآلات سلبية .

.....

ونكمل الأسبوع القادم

- [1] هذا هو الكتاب الثالث باسم "عن الحرية والجنون والإبداع" نشرت صورته الأولى في مجلة فصول- المجلد السادس - العدد الرابع 1986 ص(58/30) وقد تم تحديثها دون مساس

يمكن مواجهة القصر الخارجي بشكل ما، كما يمكن اختراقه، بل واحتساب القوة من خلال ذلك

إن ما يترتب على القصر الداخلي المرحلي، فهو خفي، ومخادع وليس في المتناول

بجوهرها، وهو الفصل الثالث من كتاب "حركية الوجود وتجليات الإبداع" الصادر من المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة، والكتاب يوجد في طبعته الأولى 2007 وهذه هي الطبعة الثانية بعد أن قُسم إلى أربع كتب أضيف إليها ما جد للكاتب بين الطبعتين، وهذا الكتاب هو الثالث.

- [2] - Identification
- [3] - Internalization
- [4] - Introjection
- [5] - Incorporation
- [6] - Identification with the "like"
- [7] - (Identification with the different" unlike)
- [8] - Identification with the "opposite"
- [9] - Primary autonomy
- [10] - Secondary autonomy
- [11] - Idealization
- [12] - Introjection
- [13] - Incorporation
- [14] - Dislodgement

ارتباط كامل النص:

<http://www.arabpsynet.com/Rakhaw/RakD161119.pdf>

*** **

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

الكتاب السنوي 2019 1 " شبكة العلوم النفسية العربية " (الصدار السادس)

الشبكة تطفئ شمعتها الثامنة عشر وتدخل عامها التاسع عشر من التأسيس

18 عاما من الضج... 61 عاما من التواصل "

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>

مؤسسة العلوم النفسية العربية

جائزة " فتية شلبي " لشبكة العلوم النفسية العربية للعام 2019

تتشفه شبكة العلوم النفسية العربية بإطلاق اسم:

" البروفيسور فتية شلبي "

(الطب النفسي، العراق / أمريكا)

على جائزتها للعام 2019 المخصصة للأعمال العلمية في الطب النفسي

تقديرًا لمسيرته العلمية المميزة

واعترافًا لما قدمه من خدمات جليلة للطب النفسي الشرعي على المستوى العالمي

دعوة لتقديم الترشيحات للجائزة

الترشح للجائزة من بداية من 01 جانفي 2019 الى 30 نوفمبر 2019

شروط الترشح

www.arabpsynet.com/Prizes/Prize2019/APNprize2019.pdf

دليل جائزة شبكة العلوم النفسية على المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com/arabpsynet.php?p=2>

دليل جائزة شبكة العلوم النفسية على الفيس بوك

<https://www.facebook.com/Arabpsynet-Award-289735004761329/?ref=bookmarks>